العدد: 02/سبتمبر2019 المجلد: 08 ISSN: 1112-7015
ص: 65 - 80
EISSN: 2602-5973

المتخيل التعويضي وجماليات الانبعاث الذاتي

في رواية قلب الاسباني لجميلة طلباوي

د. زهيرة بوزيدي
المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف – ميلة–

الملخص:
تعمد الروائية جميلة طلباوي في روايتها **قلب اسباني** إلى استدعاء الذات العربية الأندلسية المفقودة ، ضمن متخيل تعويضي يهدف إلى إعادة اتزان الذاكرة الجمعية لأمة مقهورة وذات مهزوزة وهي الذات العربية عبر اجتراح مسارات سردية مختلفة ركبت النمط الثقافي القائم على الصراع الماهي بين قطبين متنافرين لم تشكل الندية لديهما أي ميزة لفلسفة البقاء ، عليه جعلت الروائية الأنا فضاء مخترعا تمارس داخله سلطتها كونها مستثمرة المعنى تبنيه كما تشاء ، لتترك للقارئ والمتذوق الفني اكتشاف مغيباتها إمكانا واستحالة بخيوط درامية متوازية حيث تلعب الحبكة الحكائية دورها ، وترسي مبادئها المنشودة عليه كان التاريخ ملعبها والذاكرة الشعبية أداتها في ذلك .
الكلمات المفتاحية : الأندلس – التاريخ – التخييل – الذات – الآخر

Summary:
In her novel, A Spanish Heart, the novelist Jamila Talbawi intends to summon the missing Arab-Andalusian self, within a compensatory imaginary aiming to restore the balance of the collective memory of a subjugated and shaky nation, which is the Arab self, by introducing different narrative paths that constructed the cultural pattern based on the conflict between two dissonant poles that did not form a rivalry for them. Any feature of the philosophy of survival, therefore, the novelist made the ego a space of an inventor in which it exercises its power as an investor of meaning to adopt it as it wishes, to leave the reader and the artistic connoisseur to discover its absences a possibility and an impossibility with parallel dramatic threads where the story plays its role, and establishes its desired principles on it. .
Key words: Andalusia - History - Imagination - Self - Other

نص المقال : شكل التسريد التاريخي وعيا جديدا انضاف الى المجال الابداعي العربي خاصة في فترة ما بعد الاستعمار حيث راح الروائيون يتوسلون مختلف الأحداث والوقائع والشخصيات ليرتهنوها ووا قعهم المستلب فيما يمكن تسميته بسؤال البحث عن الهوية التي فقدها العرب بعد سقوط غرناطة سنة 1492 م، ذاك التاريخ المسلوب بكل ما يمثله من انقهار وحسرة مازال حبيس أرواح متمردة تستدعيه كلما فقد الحاضر معناه

كذلك هي رواية **قلب الاسباني** لجميلة طلباوي والتي انفتحت على كثير من الاسئلة المخاتلة جعلت البحث يتشظى إلى مجموعة من المسارات الثقافية الشائكة يمكن تحديدها فيمايلي :

أولا – الفعل خارج وعي الذات :

بمجرد التنبه لعنوان الرواية يتضح أن هناك انتماء مختلف للذات بما تشكله من أطياف مجتمعية متعددة فقلب الاسباني يوحي بكثير الدلالات المتحركة خارج اطار الجماعة بل هناك ادراك من نوع خاص ، أي وصف يحدد انشطار في الادراك : قلب مصدر التقليب والتدبر والتفكير والحركة أيضا والفعالية والاسباني وصف لانتماء محدد مختلف عن بنية القلب وتركيبته وطبيعته كذلك ، فالعنوان يحمل **مفارقة ما** ترتسم ضمن حدود الغيرية فسلطة التدبر هنا لا يملكها **قلب الذات** إلا إذا انعطف على خصوصية مخالفة له فكان الاسباني محمولا دلاليا يمنح للذات بداية أخرى لكن لا يمكن الجزم بكونها بداية لحياة أو بداية لموت ، لأن مجرد اطلاق العنوان على هذه الشاكلة التعينية يجعل القارئ يتحسس نوعا من الاستغراب لدى كاتبة الرواية حفزها لانشاء متن سردي بمحايثة صحفية تبعا لمجال اختصاصها .

قلب ← مرسل / الاسباني ← مرسل اليه

العدد: 02/سبتمبر2019 المجلد: 08 ISSN: 1112-7015
ص: 65 - 80
EISSN: 2602-5973

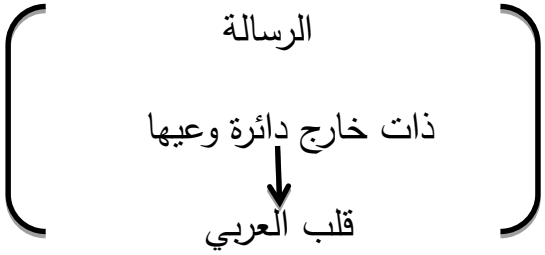

تظهر المفارقة هنا في الجمع بين متنافرات استدعاها الخط الدرامي للرواية ، لأنها تتعلق ببنية الأحداث أي أن الحدث سينمو تبعا لما يقتضيه العنوان لكن بعد التمعن تتوضح رؤية موازية تستجلي معاني مغايرة نفهمها إذا تم معايتها وطبيعة السؤال المطروح عند جمهور القراء كأن يكون مثلا : من صاحب القلب الاسباني؟ ، وما هي قصته ؟ ، وهل هناك قلب غيره مناسب له يحاوره أو يلقاه بطريقة ما ؟ هذه المحاورة المفترضة لأنه لا يمكن لقلب اسباني أن يفتن متن الحكاية إلا إذا استثمر في بيئة تخالفه ولو كان لإسباني لما كان عتبة سيمائية للرواية ، لذلك عرفنا الاختيار هنا على تلاق مستحيل أنشأته فتنة الأحداث المستدرجة ضمنه والمغرية أسست للحظة بكر عمدها المتلقي في أول لقاءاته مع الرواية ، كان يقول ما علاقتي بقلب الاسباني ؟ هذا اقبال من حيث استغراب لحالة ما مطروحة سلفا اوجبت الدهشة ودفعت القارئ من حيث لا يدري الى ازالة هذه الهالة الغريبة بفعل القراءة والمصاحبة الفنية .

جمعت المفارقة اذن بين ذات وموجودة لغة (قلب الاسباني) وذات مغيبة ومفترضة اوجبها حضوره وهي طبعا غريبة عنه كأن تكون تقدير (قلب العربي) ، والفن عموما لا تستفزه عاديات المواضيع بل يقوم على متنافرها ومتناقضها لأنه نتاج الحياة وما تحمله من اختلاف وتفاوت تصنعه عبارة ترددت كثيرا داخل الرواية وهي «**هنا ما كان والو أو على رأي محمود درويش :**

لا شيء يعجبني

يقول المسافر في الباص ، لا راديو

العدد: 02/سبتمبر2019 المجلد: 08 ISSN: 1112-7015
ص: 65 - 80
EISSN: 2602-5973

لا صحف الصباح ولا القلاع

على التلال أريد ان أبكي »[1]

بحيث عملت تلك القطعية في الحكم على واقع الأنا بالفراغ ، ومأملها الذي تريده زاهيا وفرحا لكن في الجهة الأخرى من الأرض **هناك** كما لو أن لعبة المفارقة المستنتجة تعمل على استبطان نفسي اجتماعي مهزوز ، قصد رصد احوال الناس المأزومة داخل الوطن وأحلام ابنائه المزيفة عندما تصطدم برغبات لن تتحقق ، ولا يمكن الاستفادة من هذا المعنى المفارق إلا عن طريق التأويل كما تشير يمنى العيد في كتابها " فن الرواية العربية " حيث تقول :« يرتكز التأويل على مفهوم المفارقة بين الكلمات والأشياء ، أو بين اللغة باعتبارها تعبيرا يتوسل الملفوظات الصوتية ، وبين الواقع بما يعنيه من وجود محسوس وتجربة معيشة ، وعليه فإن محتوى العمل الأدبي هو مجرد تصور ولا يمكن للحقيقة التي يبني العمل الأدبي معناها إلا أن تكون نسبية لذا فالمعنى من هذه الوجهة مفتوح على التعدد وربما اللامحدود ، أي على اللامعنى»[2]

كما أن شكل القلب الذي يعلوه تنكير مضاف إلى معرفة مخصوصة الذكر يمنحنا خصوبة معنوية تقفز إلى استجلاء فعل الذات المحدد بالغيرية أو أنه مضاف لها وليس من مميزاتها ، فكان العنوان إشارة إلى تتبع مسيرة دخيل طرئ على هوية تعاني نقصا ما تبحث عنه خارج محدداتها الماهويةولما اتضح مسماه زالت كل الحجب وراح السرد يواكب هذه الانطلاقة الجديدة للذات خارج دائرة وعيها ، عندما مارس العنوان طُعما فنيا للقارئ يستحثه على معرفة رحلة القلب الاسباني الى الذات المغيبة دونه.

انه بحث متواصل للقارئ يتوضح معه مسيرة القلب الغريب والمسمى في آن واحد الى ذات ربطتها معه علاقات موهومة او متخيلة اعتمدتها الروائية بصورة الراوي

العدد: 02/سبتمبر2019 المجلد: 08 ISSN: 1112-7015
ص: 65 - 80
EISSN: 2602-5973

العليم عندما خصصت بعنونة تشير الى مكون نصي يحمل على وضعية مغادر إليها تنقسم معها الاحداث الى مرحلة بعدية واخرى قبلية اي رحلة قبل القلب الاسباني ورحلة بعد القلب الاسباني لما كان العنوان عتبة بنائية تتكفل بنمو الاحداث بعد ذلك فكيف اذن اذا ارتبطت الاحداث برحلتين تخلد ذاتا ركبت على غيرية وكثيرا ما مثلت الرحلات انتقالا ماديا وروحيا طافح بالتغير والتحول .

حمل العنوان رمزية دالة على مكون ما تبحثه الذات وتطلبه انه الاسباني بكل اختلافه وغيريته عقديا وتراثيا ، لكن تميل الدلالة ايضا الى استكشاف حالة من الاستهجان بحيث مجرد ذكر عبارة قلب الاسباني يجعل القارئ يتمثل ذاتا هجينة مهزوزة الانتماء تتراوح في خطاب الامبريالية مركب بين **[هـــــنا .....وهنـــــــــاك]** أين يتموضع الترتيب والتصنيف الايديولوجي كما قد نقول : قلب الفرنسي – قلب الامريكي – قلب البريطاني ، ولم تكن العبارة التعويضية قلب العربي لأنه هنا مقموع داخل تهميش ضمني حاول التخييل التعويضي وضعه ضمن مسار متوهم عله يعثر على كينونته حيث تفسر الرواية ذلك في :« **... فكانت لعبد النور فرصة أخرى للحياة كل ما تأكد منه بعد ذلك أنه كان يحمل بين جنباته قلبا إسبانيا ، مع أول نبضاته أعاد إليه انتكاسات الأندلس وأخرجه من غرناطة ليعيده إلى زقاقهم المتعب بأنفاس الفقر ، لكن بالكثير من دفء التربة الرؤوم.**»[3] تلك البداية التي عبرت عنها أحداث الرواية بحيث لفت حلقاتها السردية معظم حيوات الشخصيات بنجاحاتها وفشلها أيضا .

كما كان قلب الاسباني دلالة واضحة على هوية النص مختزلة في ضم فعالية ذاتية إلى مخالف غيري تخفي بعضا من التجاور التاريخي والتراثي تشكل ضمنه افق انتظار القارئ كاستراتيجية خطابية عمل عليها التوجه السردي لسيرة شخصيات محددة بما يجمعها وغرابة الانتماء الجديد ، والذي حمله العنوان تمهيدا لهندسة نصية ستتبعه وتسير في حيزه مجموعة من المنصات المختلفة والمتنوعة عبر عوالم ثقافية

العدد: 02/سبتمبر2019 المجلد: 08 ISSN: 1112-7015
ص: 65 - 80
EISSN: 2602-5973

اختارتها الرواية و نزعت إليها؛« إن العنوان موقع ممتاز يكشف مقاما تداوليا وخطة ما وفعلا تاثيريا في الجمهور ، يخدم سواء حسن فهمه او ساء تلقيا للنص وقراءة ملائمة لمن ينتظر مؤلف النص وحلفاؤه »[4]

ثانيا – استباق على عود :

استهلت الكاتبة روايتها باستباق استشرافي ، أثار حفيظة المتلقي نحو مواصلة القراءة لتتبأه في تواصل حدثي على مسيرة سردية حافلة مكنتنا بعد المطالعة على استنتاج خط بياني فسر لنا المعنى المتوخى والموضوع المعالج ، ليتطور على الشكل التالي

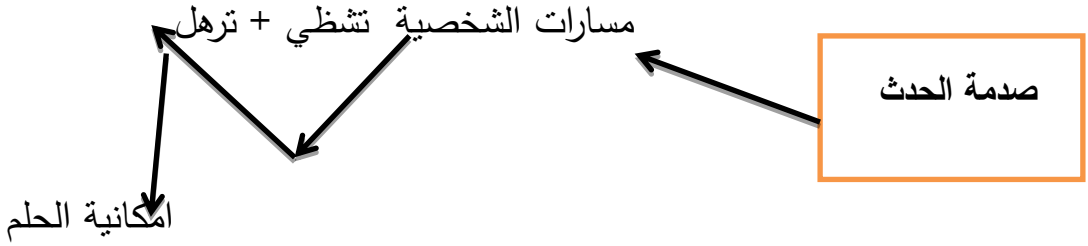

عليه تمثل هاته التعرجات مسارات الشخصيات المتحركة سرديا ضمن انهزامات مادية ونفسية ، مثلت لواقع التبس بالوهم والاستحالة خاصة في وصول الحدث إلى نهاية غير متوقعة مع كل تلك الشبكة من الحلقات الحكائية المنسوجة من لدن ذائقة فنية شغوفة بالمحاورة الصحفية والتي لمسناها أثناء تتبع الروائية لحياة شخصيات مختلفة في بروتريهات بملامح عميقة الوصف بلورت عمق تراث المنطقة التي عكفت الروائية على ذكره متواترا في متنها السردي ، مبرزة مدى تمسك السكان بأعرافهم وشعاراتهم الشعبية لتكون أبرز عبارة بني عليها الحدث هي :**[خويا سلطان وأنا وزيره]** ، مشيرة إلى قيمة كبرى وهي **قيمة الوفاء** التي ربطت خيوط المعنى داخل النسق السردي .

وكثيرا ما استندت هذه القيمة إلى ماض ما يسكن الذاكرة «**كان ذاك القلب الاسباني بقايا اندلس كانت تسكن ذاكرته راح ليستوطن بقاياها فاستوطنت جسده**»[5] لذلك

العدد: 02/سبتمبر2019 المجلد: 08 ISSN: 1112-7015
ص: 65 - 80
EISSN: 2602-5973

شكل ذاك المتخيل تعويضا علمه الراوي فراح يستفز به انبعاثات ذات تتخبط حيرة بين ماضي حضاري ثقيل وحاضر كثير الخيبات ومستقبل موهوم ، خاصة إذا أعاق ذاك الثقل الموروث حركة التقدم بحيث غابت مبادئ التفكير السليم لدى شعوب ورثت تاريخا ولم ترث استمراره .

فكانت لغة التمرد طاغية في المتن رافضة كل حاضر تشوبه الرجعية ، وتفسده عقليات متزمة فكان البديل هو دائما **الهجـــــرة** ، «عبد النور تمرد أيضا على الأسرة وعلى الأرض الام واختار الهجرة الى اسبانيا ، مثله كان قلبه متمردا على جسده وكانه اراد الانعتاق من قفصه الصدري ، وعندما اخفق في ذلك اعتل وكاد ان يتوقف به قطار الحياة لولا زوجته الطبيبة الاسبانية انقذته ونجحت في زراعة قلب له فحققت نجاحا وشهرة وعاش هو فرصة اخرى »[6] ، هذا التمرد الذي مثل في خطابات السرد طوق نجاة مفترضة لرؤية ما امتلكتها شخصيات مختلفة الانتماءات كلها اتفقت على الانبعاث الذاتي بما سمته الروائية **الخطـــــــــــارة** ، مفهومعولت عليه الذوات المأزومة داخل الرواية لفتح مجال تفاؤلي فردي عمل على وصفه الراوي كشاهد وليس كمشارك .

أ – خطاب الهنـــــــالـــــــك، واستبدالات النموذج :

دارت الأحداث حول نقطة مركزية موضوعها الهجرة ومغادرة الزقاق الشعبي إلى مكان يسكن الذاكرة إنه اسبانيا اليوم أندلس البارحة ، بهدف استبدال وضع بوضع ارتهن بميزات أكثر تطورا ونموا بل وايجابية أيضا ، «أراد بقرار الهجرة إلى اسبانيا الهروب من نحسه »[7] وظل البحث عن عالم أفضل يراود الذات المتحسرة ، لكثرة همومها ومشاكلها« لو فاز علال بمحجوبة لوجد فيها العزاء لخيباته ، لكن زواجها **زاده يتما وغربةوبتر علاقته بالمكان** ..... ومن يومها قرر علال الهجرة وبدأ في التخطيط لذلك كثيرا ما ردد عبارته التي اصبح معروفا بها : **كرهت كل شيء»**[8]

العدد: 02/سبتمبر2019 المجلد: 08 ISSN: 1112-7015
ص: 65 - 80
EISSN: 2602-5973

وان بدى الشك والاحتمال مرتسمان واختيارات الاحداث ، بحيث تعالقتالاستبدالات النموذجية بخطارة الامكان أو المحتمل لأن السير الحكائي مشدود الى خط واحد وهو الذاكرة غالبا ما شكلت خطابا سيكوسردي كما سماه سعيد يقطين أبانته عبارة **«ولم يكن يعلمبأن نحسا آخر بانتظاره هنالك»**[9]

ربط الأحداث ضمن حلقات الحكاية رغم اختلاف مساراتها الدلالية و بقراءة متأنية يتضح أن تلك الخطارة النموذج فعّلت بحثها المتواصل نحو انفراج درامي لمسناه مع كل حكاية لشخصية من شخصيات العمل ، دون أن نشعر بأي اختلال أو اضطراب معنوي أوجبها في كل مرة تلك الاستباقات العائدة على استرجاعات ناسبت فنية الخطاب المتراوحة بين فتح رؤية وغلقها ثم فتحها من جديد عبر مفارقات ذات تيمات دلت على مدى القهر والحسرة الذي تعيشه الشخصيات وكأن تلك الاختيارات النموذجية استبدلت وضعا مأزوما بوضع أكثر تأزما لا على وجه اللوم لكن على سبيل التبرير والتعليل تمثلت في هاته الثنائيات ضدية:

أيوب وعبد النور ، علال الطوروس السكر والارهاب ،وهيبة وزواج المسيار ، حورية والامبالاة ، .... ثنائيات أثثت دائرة سردية مفتوحة على فعل جديد غير الذي يستهل به السرد أول مرة ، بسطت على محمولات الذاكرة المنفية : « يسحب كما من الهواء الى رئتيه يتململ في مكانه **ومن زاوية ما في الذاكرة يتدفق ماء الحكاية** تسحب من قاعها صرخة ضمير لا تختلف عن الخطارة في بساتين مدينته الجنوبية المسكونة بالرمل وبالحلم .....**هو لم يكن له في تلك اللحظة المنفية من ذاكرته** أن يستشعر أنفاس الفجر التي كانت تتداخل مع رائحة رطوبة التربة الندية ، كان كله منبوذا من بعضه ، رأسه ينبذ أطرافه عيناه تنبذ ملامح وجهه المرهقة ، أنفه ينبذ رائحته ، فقد السيطرة تماما على جسده ، شيء أشبه بالدوامة تلقفه حتى كاد أن يفقد رشده فلم يعد يدري إن كان هو نفسه من الأحياء أم من الأموات بعد أن رج أخاه رجا لعله يخلصه من عناده **ورفضه لبتر قدمه الملغومة بالغرغرينة ، فإذا به يبعث انفجارات الذاكرة**

في قبضته التي أمسك بها الجسد المتآكل بفعل المرض ، جسد لطالما أتعبه رأسه **العنيد** الذي **رفض** التخلص من قدم صارت ميتة وآن له أن يدسها تحت التراب ، هو أراد جسده كاملا وليمة لتراب شره لا يشبع من لحم البشر »[10]

البارز من النص السابق مدى المفارقات التي عكست الشعور باختلال الحاضر المسكون بذاكرة كانت وأخرى يريدها أن تأتي باستدعاءات حوارية مثلتها النصوص تراثية، فسحب الذكريات ونفي بعضها ثم معاودة انفجارها من جديد دليل على ما تعانيه الذات من اختلال وحسرة على فقد ما احتواها .

وقد مد الزمن السردي طوله من زمن واقعي محدد ليلة واحدة ، وبذلك التكثيف نلمس ثقل المعاناة الذاتية ألمح إليه ذاك السيل من الذكريات المتواترة اسباقا واسترجاعا في اشارة من السارد الى كون الاستباق ما هو إلا نتيجة تلك الاسترجاعات المسيطرة على مسار الحكي وكما نعلم مدى هول الاستباق بما أنه مثل لحظة قصيرة لكنها صادمة للقارئ و قاسية للبطل ،« اللحظة التي حددت الذكريات فعلا وواقعا»[11]

فكان التاريخ الأندلسي المفقود يسكن جسدا عربيا أعرجا ، انحرف عن مساره الحقيقي لما ترك التفوق لغيره يمتلك ما أنتجته القرون الثمانية من اجتهاد ما زال عمرانه مادة صامدة تشهد سطوة كانت وجبروتا زال ، في القسم الرابع من الرواية تصدر وصف طويلا لمدينة مدريد بتفاصيل اكدت سطوة المكان بما يستدعيه من حنين ، أريد منه ترسيخ دهشة الذات واحتفاليتها بالمكان:« وصل ايوب الى مطار **أدولفو سواريز** بمدينة مجرى الجليد مدريد حاملا هما تنوء به جبال **سييرا دي غودا** مارا الشامخة في هذه **القطعة المهربة من الجنة** ، هذه **المدينة الفاتنة بمبانيها** التي أبدع فيها مصمموها والبناؤون ونحاتون ، الذين أبدعوا تلك التماثيل الرهيبة التي لا تكف عن **سرد حكاياها للمكان فيزداد رونقا وبهاء**» أومئ الوصف في المقطع السردي السابق الى اشارات ذاتية توحي بوعي السارد وفكره في وقفة استذكارية أصبغت جوا ايجابيا على مكان بملامح مختلفة لكنها محطة لكينونة ماضية شغلها

حيز التخييل التعويضي الذي ألفته الكاتبة منوهة بالمسيرة الحضارية للأمة العربية والإسلامية تجسدها العين المعجبة بإحساس عال جدا في عباراتها مثل : القطعة المهربة من الجنة – المدينة الفاتنة – سرد حكاياها للمكان فيزداد رونقا وبهاء.

كما بدأ النص الواصف بعبارة رئيسية حملت معنى قيميا ، فصل بين مرحلتين الاولى ماضي كئيب والثانية **حاضر بديل بوعي الوهم** فكانت بالعبارة هي : حاملا هما تنوء به جبال سيرا دي غودا مارا هذا الهم الذي يروم الراحة بين رهبة تماثيل مدينة مدريد وفتنة مبانيها ، إنها فتنة موروثة عن تاريخ مفقود ، أذ كيف تكون الراحة وسط مجتمع مختلف لغة ودينا أن لم تلمس فيه الذات صوتا قادما من الماضي الضائع ،«لتلك التماثيل اصوات لا يدركها السمع تتوغل عميقا في الروح . الشوارع مازالت تحتفظ بملامح التاريخ كما سيدات تقدم بهن العمر لكن حافظن على السحر والجاذبية ، المباني الشهيرة في مدريد تزدحم ، تغريك بالغوص في تاريخها انها تفتح كتبها مشرعة على التاريخ نابضة بدماء الحاضر تتنفس من رئة الجمال ..... في مدريد لم يصادف أيوب التروبادور الذي يسكن مخيلته بل صادف **عازف الكمان** في انغامه حضرت معالم الاندلس واثواب غرناطة التي لا تريد هذه الارض ان تتزعها عنها ...»[12]

استحضر الوصف نوستالجيا الحزن أو بكاء الذات وندمها لما تم التفريط به في خطاب رسم بين التوهج والذبول على النحو الآتي :

- **اصوات لا يدركها السمع**

- **تتوغل عميقا في الروح**

- **الشوارع مازالت تحتفظ بملامح التاريخ – تغريك بالغوص في تاريخها – تفتح كتبها مشرعة على التاريخ نابضة بدماء الحاضر ، تتنفس من رئة الجمال**

- **عازف كمان** ⟵ اشارة الى مدى الحزن الذي يتملك الذات

– **حضرت معالم غرناطة التي لا تريد هذه الارض ان تنزعها عنها** ، لتبقى هذه المحمولات متوازية وثقل هم الذات وبحثها الدائم عن الراحة التي توهمتها وسط معالم حاضر يلفظها لكنها تنتمي إليه بديلا تعويضيا بقدر ما شكلت في زمن ما بداياته الزاخرة والغنية كفلت هذه الاستمرارية المنتسبة للغير ، مال إلى ذكرها الخطاب الواصف هنا معلنا عن توجه فكري احتواه لكون « النص ملفوظا وتلفظا متجذر في الايديولوجيا وأنه لا يكتفي بأن يكون بل يستخدم وسيلة إلى شيء،ما وأنه ينتج الايديولوجيا وتنتجه »[13]

فعل الغربة الاختياري ، الذي وشح فرص الارتحال إلى عالم المتخيل التعويضي للذات المفقودة خلق هوة فعلتها تلك الريبة والحيرة المتسائلة عن مصيرها بين الحين والآخر وإن كانت الاحقية في التعويض مثله فعل الاختيار المبني من وطن سكنته روح الاغتراب :" هكذا تمتم وهو يسحب هواء هذه المدينة الى رئتيه واضاف معاتبا اخاه : آه ماذا فعلت بي " يا السبليوني "

أخاه السبليوني عبارة تنحو إلى انبناء ذاتي توحد مع ذاكرة شرخ جسرها (الوفاء– الأخوة) إذ تستشعر هذه الذات المبعدة من ذاكرتها بمرارة واقع لم يناسب في نتائجه بداياتها « انتظر قلبه أن يرحل كي يستوطن جسدا عربيا ، هل القلب الاسباني سيعرف غربة المكان أم أنه عاد إلى موطنه ، فالدم العربي اختلط بدماء هؤلاء الذين يعمرون هذا البلد الجميل قد يكون عبد النور وذاك الرجل يشتركان في جد واحد من يدري ؟ ، أو أن عبد النور يليق به قلب اسباني فقط ؟ قد يكون المتبرع من سلالة أحد الموريسكيين مازال نحيبه يملأ أركان المكان ويتجدد مع مواسم البرتقال وجني الزيتون والكروم »[14]

وتتواصل علاقة البطل بمتخيل الانبعاث ، حيث تبلورت ملامحها ضمنيا ووعيها الجمعي «وبدأت تتشكل علاقة حب بين عبد النور، وتلك الفردوس المتاخمة لما وراء البحر ورغم نجاحه في الباكلوريا والتحاقه بكلية الصيدلية ظل شيء من تلك الفردوس

العدد: 02/سبتمبر2019 المجلد: 08 ISSN: 1112-7015
ص: 65 - 80
EISSN: 2602-5973

يدعوه للمغامرة إلى أن جاء اليوم الذي قرر فيه الهجرة »[15]، ومن ثمة نشأت بدائل عملت الذات على تداعيها ذاكرة بديلة ، مستحضرة لكل غيبي «بيد أن كل الغائبين حاضرون ، إلا أن حضورهم يتم عبر بدائل سرعان ما تحجب أصولها ليصبح الفرع أصلا والنسخة نموذجا : فالقمر يطمس الشمس ويحتل مرتبتها ويصيرها ظلا له»[16]

لغة النحيب على ماضي ضيعته الأخوة المعطلة ، ورمت به في أحضان المركزية الغيرية «وبقدر ما تتجلى نزعة الذات الى التمركز ، في نسق السجال تضمر دلالات التنابذ وعسر التواصل والتمرس خلف القيم الذاتية وتصير الهوية الباحثة عن التجلي الطاغي قاعدة لممارسة العنف النصي مجددا ، وسياقا لمحاكاة التمركز الموضوعي حول دوائر الالفة الجغرافية والثقافية »[17]، كما شهدته علاقة عبد النور وصوفيا حيث تخلخلت اركانها بهزة شك واحدة ، بترت وجودا انبعاثيا لذات كانت مرفوضة ماضيا ومازالت مرفوضة حاضرا ، أذتربص بها الرافض يترقب ضعفها وتضعضعها ويعيد دورانه حول ذاته بإحكام سيطرته على ارث رآه لن يكون إلا له مقابل مختلف عقدي وثقافي مازال يعاني من هوية الشتات موروثة (المورسكي)، لذلك كانت عودة القلب الاسباني إلى الجسد العربي حلما اعتلت رموزه كونه جسدا ناقصا لا يمكن عده اطارا نموذجيا لفعل العودة.

ب- **عطب الذاكرة و انكسار المسار:**

جرت التداعيات الحرة لذكريات الشخصية سلبية وتحطمت كل أمانيها «لكن الزمن هرول سريعا وأذاب زبدة الذكرى وبدأت تتسلل بعيدا في أغوار الماضي ليحل عصر رهيب هو أشبه ما يكون بالطاحونة ، يطحن الوقت يطحن معادن الناس يطحن الفرح ، يطحن كل أثر لذكرى .»[18] ، وخشيت الأمنيات تيارات عكسية قلبت الفرح حزنا والأمل تشاؤم وعادت الذات تجر خيباتها « فكان هناك ضربا من الاستعراب المقلوب ، وبدل أن يرى صورة الآخر في ذهنه ، رأى صورته في ذهن الآخر بدل

أن يرى الآخر في مرآة الأنا رأى الأنا في مرآة الأخر ، ولما كان الآخر متعدد المرايا ظهر الآنا متعدد الأوجه»[19]

وقد تفرعت الأحداث باسترجاعات أفادت مدى ما وصلت إليه يوتوبيا التعويض حيث «أدرك أيوب بشكل متأخر بأن عبد النور كان ميتا في جلده يحدث أن يقتل الإنسان نفسه بشكل من الأشكال فيتحرك ويأكل ويضحك ويمشي بين الناس ، لكنه في الواقع ميت ، قتل شيئا بداخله كي يستطيع الاستمرار على هذه الأرض »[20]

تمت عملية قتل الذات حيث بتر ماضيها وتفشت وسطها هزات ارتدادية وسعت الهوة بين تاريخ مفقود وحاضر مستلب ، وبرز العرج الذاتي بغياب عالمه المدرك إذ «أدرك أيضا بأن تلك الغرغرينة قبل أن تتمكن من رجله تمكنت من روحه وبترت شيئا كان فيه يربطه بالحي الذي نشأ فيه بالزقاق بذكريات الطفولة وحتى بمجانين الحي الذين كانوا يصنعون بهجة طفولته ومراهقته»[21]، لقد تحول الجسد هنا بعد انشطاره في عالمي الناظر والمنظور كما يفسره الفيلسوف مرلوبونتي إلى جسد غابت عنه توليفاته منفصل عن العالم الذي اضاع قناته التواصلية مع ماضي بددت موروثاته وحاضر فارغ من الذاكرة ، عندما تغيرت الرؤى واختلفت نتائج المقدمات بما يعايشه المنظور الجسدي من زيف ويأس وبات الجسد هنا مجرد آلة مكانيكية متحيزة في الفراغ بأبعاد حتمية فقط [22]

تلك الأحداث ركبت فوق بساط تراثي لأنها وسعت من دائرة وصف منطقة بشار بكل تقاليدها ولهجتها ، منطلقة إلى سرد أحداث لشخصيات متعددة أسهمت في توضيح صورة البطل الذي لم يتخذ صفة المفرد بل كانت الجماعة صوتا يضم مختلف الرؤى والتيارات ، بكل ما يحمله المجتمع من اختلاف وتشابك علائقي احتواه زقاق شعبي ضيق بكل اتساع ممارساته الثقافية والاجتماعية معبرا عما تختلجه النفوس من حسرة وآلام .

العدد: 02/سبتمبر2019 المجلد: 08 ISSN: 1112-7015
ص: 65 - 80
EISSN: 2602-5973

كانت الصدمة قوية بعدما انتقل المشهد السردي من سيره التراجيدي عبر متتاليات مأساوية حطمت من خلالها طموحات كثيرة لشخصيات عديدة ، إلى إلقاء لحظة يقظة في ليلة واحدة بزمنها المحدود وكثافة أحداثها بل وثقلها فكان الهاتف ، « هاتف صوفيا أعاد الأندلس لروابي روحه فأعاده إلى الحياة صوفيا خطارة أخرجت ماء الحياة من بئر ما أغدقت به على جسد عبد النور الذي ظن أنه جف ومات .... عبد النور لم يمت، يرتمي أيوب على جسد ملغوم بالغرغرينة جسد عربي بقلب أوروبي جسد يختصر عالمين .»[23]

تعانق اللحظتين لحظة عودة عبد النور إلى الحياة ولحظة مكالمة صوفيا له ، أعاد الحركة إلى نصابها لأن عملية الانقاذ الروحي والفزيولوجي كانت بحضن الأخوة عودة ببتر ، بتر نحو ماضي ضائع بحسرة وواقع رافض بخطاب الريبة والشك فلم تكن صوفيا الحبيبة الدائمة إنها ومضة الحياة المستحيلة والمتخيلة بدليل بعدها عن عبد النور خطارة أيامها وعودته إلى الوطن مشوها مفرغا من خطاب الهنا والهناك فلم يجد استقراره لا هنا ولا هناك ، فقد غادر عبد النور الزقاق بقلب معتل وعاد إليه بقدم معطوبة ، عطب ذاتبذاكرة معتلة ومسلوبة .

لم يكن حب عبد النور كافيا ليكسب ثقة صوفيا في أول امتحان اهتز وتضعضع وأي مفارقة تلك أردفت فعل الطرد ، إثر تهمة أدخلت عبد النور السجن ظلما وبين مكالمة من صوفيا تحينت وعي يقظته لذلك كانت تلك المكالمة مرتهنة بحضن الأخوة الذي يجمع العيوب والمحاسن دون لوم شعارها: **الله يجعل خويا سلطان وأنا وزيره .**

لازم الاختيار المنشود من البطل رفضا للبتر الممارس في أساليب شتى ، كون الأندلس ما زالت تستوطن الجسد العربي كما استوطنها هو « مثلما استوطنت اربعة آلاف كلمة عربية اللغة الاسبانية هذا الانصهار هو احوج ما يكون لبتر غرغرينة

الكره التي ظهرت في الجسد الإنساني أي لعنة تسربت إلى هذا العالم فرقت بينهما»[24]

مثل التشوه الجسدي إذن اكتفاء ذاتيا لهامش شعر بغربته ضمن مساقات مختلفة فراح يقبل بالنقص الفيزيولوجي مقابل الكمال الروحي وإن خالفت نهاية الأحداث بداياتها الصادمة وكانت بفعل الدهشة حيث ترك المسار الدرامي مفتوح وهي غاية قصدتها السارد لمجاوزة الواقع بل والانتصار عليه ، خاصة إذا علمنا غاية الأدب التعبيرية والانفعالية في آن واحد اتجاه الظواهر ومسبباتها ، لذلك كان فعل الكتابة هنا موازيا لواقع التمرد والعود الذاتي من أجل تسوية المتناقضات أو جعلها أقل اختلافا مع التكيف معها و السعي لتقبلها.

الهوامش:

1- جميلة طلباوي :" قلب الاسباني "، منشورات الوطن ، الجزائر ط1 2018، ص 43
2- يمنى العيد " فن الرواية العربية " دار الأدب القاهرة دط ص : 49
3- الرواية ، ص : 50
4-محمد القاضي وآخرون " معجم السرديات " ، دار محمد علي للنشر تونس 2010 ص : 63
5- الرواية ص : 46
6-المصدر نفسه ص : 46
7- المصدر نفسه الصفحة نفسها
8- المصدر نفسه ص : 139- ص : 154
9- المصدر السابق ، ص : 46
10- الرواية ص : 8- 9
11- غاستون باشلار :" جدلية الزمن ، تر خليل أحمد خليل ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ط2 1988 ص 2
12- الرواية ص : 78- 79
13- فليب هامون :" النص والحوار " ص 6
14- الرواية ، ص : 79 – 80

15- المصدر نفسه ، ص : 136

16- عبد الفتاح كليطو :" الأدب والمتافيزيقا " ، تر كمال تومي دار توبقال المغرب ، ط 2 2006 ، ص : 51

17- شرف الدين مجدولين :" الفتة والآخر ، أنساق الغيرية في السرد العربي " ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط1 2012، ص :100

18- الرواية ، ص : 137

19- عبد الله ابراهيم "الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة " ، منشورات الاختلاف الرباط ، ط1 2010 ، ص : 91 – 92

20- الرواية ، ص : 149

21- المصدر نفسه ص : 149

22- ينظر : رشيد دحدوح :" كوجيتو الجسد ، دراسات في فلسفة مرلوبونتي " أشراف جمال مفرج ، منشورات الاختلاف الجزائر ط1 2003 ، ص : 113

23- الرواية ص : 198 – 199

24- الرواية ص : 128